— ١٢ —

شعـــــر ونثر

صديقى العزيز هيكل

أدركنى مقالك الممتع حول الشعر والنثر فى هذا البلد الذى أويت اليه من بلاد لبنان ، معتزلا كل حركة علمية أو أدبية إلى حين . ولعلك تذكر أنى كنت وعدتك بطائفة من الفصول أرسلها اليك من لبنان أدرس فيها درساً رفيقاً شعر شوقى والبارودى . ثم آثرت الكسل على العمل والراحة على الجهد ، فاعتذرت اليك من هـــذا الوعد وسافرت ولم اصطحب شعر شوقى ولا شعر البارودى . ومع ذلك فلى فى الشاعرين رأى أنا على اظهاره حريص، لا لأنى أراه فحسب ، بل لأنى أرى فيه عدلا وانصافا ، وأرى أن هذا الجيل الذى نحن فيه قد فتنه الجهل والشهوة فظلم وجار ، وأصبح من الحق على النقاد أن يرفعوا هذا الظلم والجور . ورغم هذا كله فقد آثرت نفسى بالراحة وأرجأت اعلان هذا الرأى الى حين ، وأويت الى هذه الناحية الجميلة من نواحى لبنان

أتذوق فيها عذوبة الماء ورقة الهواء واعتدال الجو وحسن أخلاق الناس . وكنت أظن أن لن يصرفني عن هذه اللذة صارف حتى أعتزم العودة الى مصر لأستأنف فيها حياتنا الشاقة مع أول السنة ، ولكني تورطت فطلبت اليك قبل السفر أن ترسل الىَ السياسة ، وتورطت فجعلت أنظر فى السياسة كلما وصلت الىَ ، وتورطت فقرأت إعلانا أذاعت فيه السياسة أنها ستنشر لك فصلا فى الشعر والنثر ، فتمنيت ألا تصل الىَّ السياسة يوم تنشر لك هـــذا الفصل لأنى لا أستطيع أن أرى لك شيئاً فى الأدب دون أن أقرأه ، وأن أقرأه فى عناية وتدبر ، لأنى كنت كما قلت معتزماً ألا أقرأ شيئاً ذا بال . فلما وصل إلىَّ هذا الفصل لم أجد بداً من قراءته وأنا أشكر لك أجمل الشكر هذه الساعة اللذيذة التى أنفقتها فى قراءة هذا الفصل الممتع . فهو فصل ممتع حقاً فى لفظه وفى معناه وفى أسلوبه وفى طريقة عرضه على القراء . ويظهر لى أنك قد أصبحت من أشد الناس شرها إلى الثنـــاء والاعجاب ولكنه شره محمود ، فأنت لا تكتب إلا اضطررت قراءك إلى الثناء والاعجاب ، وأنت لاتسمع ثناء ولا تحس اعجاباً الا ازددت اجادة وأمعنت فى الاتقان .

ولست أدرى الى أين يذهب بك هذا الامعان فى اجادة البحث واتقان التفكير ، والتوفيق الى الجمال الفنى فيما تكتب ، وقد قيل ان لكل شيء حداً ، وأنا أومن بأن للثناء حداً وللاعجاب حداً نحن منتهون اليه ، ولكنى أومن بان ليس للجمال الفنى حد ، وإنما هو مثل أعلى يمضى أمامنا ونسعى نحن فى أثره فنبلغ منه شيئاً ثم نحس أن ما بلغناه ليس كل شيء ، فنسعى ونسعى وهو يمضى ويمضى ، وإذا فسيزداد حظك من الاتقان والاجادة ، وسننتهى نحن من الثناء عليك والاعجاب بك الى حد لا نستطيع أن نتجاوزه ، وسيكون بيننا وبين حقك علينا أمد ليس الى قطعه من سبيل .

أنت موفق حين تلاحظ أن النثر العربى فى هذا العصر قد نهض نهضة قيمة وأصبح أداة صالحة للتعبير عن حاجة العقل والشعور بعد أن تطور العقل والشعور فى هذا العصر تطوراً لم تعرفه العصور القديمة العربية. وفى الحق أنا نستطيع الآن أن نصف ألواناً من الآراء والخواطر فى فنون من القول مرنة سهلة راقية لم يكن لآبائنا بها عهد . وأنت موفق أيضاً حين تلاحظ أن النثر العربى الحديث على رقيه وامعانه فى هـذا الرقى لم يزل فى حاجة الى كثير من المرونة واللين

والثروة اللفظية ، وأنه قد لايحتاج إلى زمن طويل وجهد عظيم قبل أن يبلغ حاجته من هذا كله . وآية ذلك أنا نعجز أحيانا كثيرة عن أن نصف بعض الخواطر التى تخطر لنا والعواطف التى تجيش فى صدورنا . بل نعجز عن أن ننقل خواطر وآراء يراها الأوربيون سهلة يسيرة بل مبتذلة وتضيق عنها ألفاظنا وأساليبنا لأنها مقيدة بطائفة من القيود اللغوية والنحوية الثقيلة التى لم نتفق بعد على طريق للتخلص منهـــا . وآية ذلك أيضاً أنا نضطر فى أحاديثنا وفى كتاباتنا الى أن نستعير جملا فرنسية أو انجليزية أو ألمانية أو الى أن نستعير جملا من لغتنا العربية العامية .

أنت موفق فى هذا كله ، وموفق أيضاً حين ترى أن طائفة من الكتاب المحـــدثين قد استطاعوا أن يتمايزوا بأساليبهم وشخصياتهم وآرائهم ، وأن يستقلوا عن القدماء دون أن يتصل كل واحد منهم بواحد من أولئك القدماء .

كل هذا حق ، وحق أيضاً أن الشعر بعيد كل البعد عن أن يصل الى حيث وصل النثر من الرقى والقوة والمرونة ، وأن الشعراء بعيدون كل البعد عن أن يصلوا الى ما وصل اليه الكتاب من التمايز بألفـــاظهم وأساليبهم وآرائهم

وشخصياتهم ، وأن يستقلوا عن القدماء من فحول الشعراء . كل هذا لا سبيل الى الشك فيه ، وهو شيء نحسه جميعاً وقد سبقت أنت فأعلنته وعرضته علينا وعلى الناس . ولكن لى بعد هذا ملاحظتين أحب أن أعرضهما عليك ، وأحب أن تفكر فيهما بعض التفكير ، وأرى إن فعلت فقد نربح من هذا فصلا ممتعاً كالفصل الذى فرغت من قراءته منذ حين .

فأما الملاحظة الأولى فهى أنك قد وفقت الى كل هذه الحقائق الواقعة واجتهدت فى عرضها وتوضيحها ، ولكنك لم تبحث عن الأسباب التى دعت الى وجود هـــذه الحقائق الواقعة ، فلماذا رقى النثر وسهل وساغ حتى أصبح أداة صالحة للتعبير ؟ ولماذا جمد الشعر أو قل ظل جامداً لا لين فيه ولا مرونة ولا جدة ولا حياة ؟ ولماذا استطاع الكتاب أن يتمايزوا بشخصياتهم القوية وأن يفرضوها على الناس فرضاً ، وعجز الشعراء عجزاً فاحشاً عن أن تكون لهم هذه الشخصيات حتى أصبح من أيسر الأمور على الناقد اذا قرأ قصيدة لشوقى أو لحافظ أو غيرهما أن يرد هذه القصيدة الى أصلها القديم الذى أخذت منه ، أو أن يرد كل جزء من أجزاء هذه القصيدة الى أصله الذى أخذ منه ؟

حسن أن تذهب أيهـــا الصديق مذهب أصحاب العلم الطبيعى فتلاحظ الظواهر الأدبية وتسجلها . ولكنى قلت لك غير مرة إن أساليب العلماء وحدها قد تعجز عن الكفاية فى الأدب وفى النقد بنوع خاص ، وما الذى أفدته انا حين عرفت أن النثر قد ارتقى وأن الشعر مازال جامداً ؟ ألست ترى أن من الخير أن أعرف لم ارتقى النثر وجمد الشعر لأتزيد من أسباب الرقى ولأجتهد فى أن أتقى أسباب جمود الشعر وأخلص الشعراء منها ؟

والحق أنى فكرت كثيراً فى هذه الأسباب وفكرت فيها منذ اعوام حين كنا نعمل معاً فى تحرير السياسة وحين كنا نلاحظ فى شىء من الرضا والأمل أن فننا النثرى يزداد فى كل يوم مرونة ويصبح فى كل يوم أداة صالحة فى أيدينا ، نتسلط بها على الخواطر والآراء والمعانى المتباينة فى جميع أنحاء الحياة ، وحين كنا نضحك ونتهالك على الضحك من شعر الشعراء وجموده وعجزه عن الحركة وخلوه من الحياة ، وحين كان كل واحد منا يلقى على صاحبه هـــذه الكلمة الكاذبة التى نقدم بها الى القراء شعر أصدقائنا الذين نسبغ عليهم مبتسمين فى سخرية ورحمة وإشفاق ، أشد الألقاب

ضخامة وفراغا !

أنت تذكر هذه الأوقات ، وكيف تنساها ومازلت فيها ؟ أليست تصل اليك من حين الى حين قصائد شوقى وحافظ وغير شوقى وحافظ فتفتن أو تكلف من أصحابك من يفتن فى ترصيع الألفاظ وتأليف الأسجاع مقدمة بين يدى هذه القصائد ، وإن على شفتيك لابتسامة لو رآها الشعراء وفهموها لأعرضوا عن الشعر أو لسلكوا بالشعر طريقاً غير هذه الطريق العقيمة التى لا يعرفون لها أخراً ؟

فكرت فى هذه الأسباب فلم أنته الا الى سبب واحد ، يخيل الى أنه المؤثر الحقيق فى رقى النثر الحديث وجمود الشعر فى هذا العصر ، وأنا أعلم أن الشعراء سيدهشون ويضحكون وسيغضبون ثم يثورون حين أعرض عليهم هذا السبب . ولكنى قد تعودت من شعرائنا الدهش والضحك والغضب والثورة وما هو فوق هذا . فسأعرض عليهم هذا السبب مبتسما بل ضاحكا ان لم يقنعهم الابتسام .

شعراؤنا جامدون فى شعرهم لأنهم مرضى بشىء من الكسل العقلى بعيد الأثر فى حياتهم الأدبية ، فهم يزدرون العلم والعلماء ولا يكبرون الا أنفسهم ولا يحفلون الا بها ، وهم

لذلك أشد الناس انصرافاً عن القراءة والدرس والبحث والتفكير . وكيف يقرءون أو يتحدثون أو يفكرون وهم أصحاب خيال ، ومن شأن الخيال أن يصعد فى السماء بجناحيه فى غير تفكير ولا بحث ؟ فأما البحث والتفكير فشأن العقل ، والعقل عدو الخيال وهو عدو الشعر . والعقل ميزة الفلاسفة وميزة العلماء والشعراء أجل وأعلى أن يكونوا فلاسفه أو علماء إنما هم شعراء ! وإذا قلت شعراء فقد قلت كل شىء ، أو قل انك قلت شيئاً لا يفهم . وأنت تجلس الى شعرائنا وتتحدث اليهم وتسمع لهم ، فهل رأيت منهم الا ازدراء لفلسفة الفلاسفة وعلم العلماء وبحث الباحثين ؟

هذا فيما أرى هو السبب الحقيق بجمود الشعر العربى فى هذا العصر ، فليس من الحق فى شىء أن الشعر خيال صرف ، وليس من الحق فى شىء أن الملكات الانسانية تستطيع أن تمايز وتتنافر فيمضى العقل فى ناحية لينتج العلم والفلسفة ، ويمضى الخيال فى ناحية لينتج الشعر ، وإنما حياة الملكات الانسانية الفردية كحياة الجماعة رهينة بالتعاون ، ومضطرة إلى الفشل والاخفاق اذا لم يؤيد بعضها بعضاً . وأنا زعيم لك بأن العالِم فى معمله يستخدم الخيال أكثر مما يستخدمه الشاعر ،

ولولا هذا لما تصور ألوان التجارب والفروض الغريبة التى تنتهى به دائماً الى استكشاف الحقائق العلمية الصحيحة . فالعالم يستخدم الخيال ويستغله ويستعير جناحيه يطير بهما ويصعد ويمعن فى التصعيد ويعود ومعه نتائجه القيمة . أما الشاعر (العربى) فيزدرى العقل ويستعين به ولا يستعير مصباحه ولا يهتدى بنوره . واذاً فهو لا يستطيع أن يتقدم لأنه فى ظلمة حالكة ، وهو لا يستطيع أن يرى أمامه فيضطر الى أن ينظر الى الوراء ويستعير شعر القدماء وخيال القدماء . ومن الغريب أنه يستعير شعر القدماء فى غير فهم له ولا بصر به ، فان القدماء لم يعتمدوا على الخيال وحده وإنما اعتمدوا على الخيال واستغلوا العقل استغلالا عنيفاً . وأنا أستطيع أن أؤكد لشعرائنا أن القدماء من شعراء العرب فى جاهليتهم واسلامهم كانوا أصحاب خيال وعقل وعلم ، بل كانوا فى الجاهلية يحتكرون العلم احتكاراً دون غيرهم من الناس . فأما فى الاسلام فقد كان الشعراء الأمويون يعلمون حظ عصرهم من العلم . وأستطيع أن أؤكد لشعرائنا أن جريراً والأخطل كانا يعلمان علم الشعبى وابن عباس وغيرهما من علماء عصرهما ، وكان أبو نواس محدثاً أخذ عنه الشافعى

وكان يشارك المتكلمين فى مقالاتهم ، ويأخذ بحظ موفور من فلسفه الفلاسفة ، ويسخر من النظّام ومقالاته فى الكبيرة والتوبة وما اليهما . فأما المتنبي وأبو العلاء فالنظر فى شعرهما زعيم بأن يثبت لشعرائنا أنهما كانا أصحاب عقل وفلسفة ، وأن حظهما من القراءة والدرس لم يكن أقل من حظ العلماء والفلاسفة الذين عاصروهما .

الفرق بين الشعراء والكتاب فى هذا العصر : أن الشعراء لايقرأون ولا يتعلمون ولا يعنيهم أن يقرأوا أو يتعلموا ، فهم غير متصلين بعصورهم ، وهم لذلك عاجزون عن التقدم والتطور، أما الكتاب فيقرأون ويتعلمون ويتزيدون من القراءة والعلم ، ولا يرون الحياة الا قراءة وعلما . فهم لذلك متصلون بعصرهم يقرأون فتضطرهم القراءة الى التفكير ، ويتعلمون فيضطرهم العلم الى البحث وتنشأ لهم من هذا شخصية قوية ملاكها العقل والخيال والابتكار معاً ، ولست أقيم على ذلك دليلا معوجاً أو بعيد المنال ، وإنما ألفتك الى نفسك فأنت فى قراءة متصلة وأنت لا تعرض لكتاب تنقده حتى تقرأه أو تقرأ أكثره وأنت لا تنقد هذا الكتاب حتى تقارن بينه وبين ماقرأته من أمثاله . فأما شعراؤنا فيقرأون فى السماء وفى السحاب ولكنهم لا يقرأون فى الكتب !

ولقد ترجم أستاذنا لطفى السيد أخلاق أرسطاليس فنقدته أنت ونقده العقاد ونقدته أنا ، وكلنا قرأ الكتاب كله أو أكثره فى العربية وفى الفرنسية أو الانجليزية أو اليونانية، وكلنا قارن بين الترجمة وأصولها ، وكلنا فكر فى فلسفة أرسطاليس وفلسفة أستاذه أفلاطون، وكنا حاول أن يقدر الامد بين فلسفة أرسطاليس والفلسفة الحديثة، وكلنا حاول أن ينقد أو يقرظ عن علم وبصيرة . وتقدم لتقريظ الكتاب شعر شوقى وحافظ ونسيم ، وأنا أستحلف شعراءنا الثلاثة بخيالهم العزيز عليهم هل قرأوا ترجمة الأستاذ لطفى السيد أو أصلا من أصول هذه الترجمة ، بل هل قرأوا فصلا واحداً من الترجمة أو الأصل . أما أنا فاقسم ما قرأوا من الترجمة ولا من الأصل شيئاً ، ولذلك أجتنب حافظ ونسيم موضوع الكتاب وفلسفة صاحبه وذهبا يمدحان لطفى السيد وأرسطاليس ، وللطفى السيد شخصية معروفة ولأرسطاليس شخصية معروفة . ويستطيع الشاعر أن ينسج حول هاتين الشخصيتين ألفاظاً حلوة خلابة لاتخلو من ضخامة ولا تبرأ من فراغ : فأما شوقى فأراد أن يمتاز فعرض للفلسفة ولفلسفة أرسطاليس، ولكنه لم يستقها من مصادرها كما يفعل العلماء ، لأنه لايجب أن يقرأ ولا يليق

به أن يقرأ وكيف يقرأ وله خيال يستطيع أن يصعد فى السماء فيرى فلسفة أرستطاليس فى الجوزاء، وفلسفة أفلاطون فى الثريا وفلسفة سقراط فى المريخ، فيأخذ من هذه الفلسفة مايشتهى ؟ وقد صعد خياله يومئذ فى السماء وتنقل بين الكواكب السيارة والثابتة، ثم تنزل الينا بفلسفة أضافها الى أرستطاليس فاذا هى فلسفة أفلاطون وقد نبهته الى ذلك يومئذ (فى السياسة) فغضب وغضب أصحابه وأنصاره وتحدث بعضهم بأن شوقى لم يخطىء وانما أخطأ أرستطاليس! وكيف لا وخيال الشعراء وخيال أميرهم بنوع خاص أصدق من فلسفة الفلاسفة ومن فلسفة المعلم الأول نفسه ؟ ولو أنك قرأت شعر شوقى أو شعر حافظ أو شعر نسيم أو شعر من شئت من هؤلاء الشعراء المعاصرين، والتمست العلة لخلو هذا الشعر من الشخصية الحية لما وجدت هذه العلة الا فى أن شعراءنا يسرفون فى الكبرياء فيؤثرون الجهل على العلم والكسل على العمل، ويقرأون فى الفضاء بدل أن يقرأوا حيث يقرأ الناس، وهل كان فيكتور هوجو أو لامارتين من الكسل والبطالة حيث يعيش شعراؤنا ؟ كلا إن الشعراء الغربيين كشعراء العرب القدماء، يتصلون بعصورهم اتصالا متينا، يقرأون ويدرسون ومنهم الطبيب ومنهم الطبيعى ومنهم

صاحب الكيمياء ، ومنهم من يتصرف فى فنون العلم المختلفة .

مثل شعرائنا كمثل علماء الدين عندنا ، شعراؤنا يكتفون بخيالهم ، ويعتمدون عليه وحده فينوء بهم هذا الخيال، ويعجز عن أن يرتفع فى الجو، ويصبح من العقم بحيث ينتج هـــذا الشعر الجامد الذى تقرؤه. وعلماء الدين يكتفون بكتبهم القديمة ، ويحملونها كل شىء فتثقل بهم ويصيبهم العقم والفساد ، بينما شعراء الغرب وعلمـاء الدين فى الغرب يقرأون ويتعلمون ويتصرفون فى الفنون، فهم علماء قبل أن يكونوا شعراء وقبل أن يكونوا قسيسين .

وظاهرة الكسل هذه التى نجدها عند الشعراء ، والتى تفسد عليهم الشعر تنتقل منهم بطريق للعدوى ـ فيما يظهر ـ إلى القراء فيصيبهم الكسل هم أيضاً ، يصيبهم هذا الكسل العقلى فيفسد عليهم ذوقهم الأدبى ، واذا هم يحبون هذا الشعر ويكلفون به بل يكتفون به بل يعجزون عن أن يسيغوا أى شعر آخر، فيه أثر ما من آثار الحياة العقلية القوية . مثلهم فى ذلك مثل الرجل الذى عود معدته لوناً أو ألواناً من الطعام اليسير السهل الذى لا يغذى ولا يجهد ، فاذا اضطر الى لون آخر من ألوان الطعام فيه شىء من دسم أو غذاء لم يسغه ، فان أساغه لم يهضمه. ومن

هنا لا يميل قراؤنا الى هذا الشيء القليل من الشعر القيم ، الذى يظهر فيه أثر العقل كما يظهر فيه أثر الخيال ، فيجب أن نكون منصفين ، وأن نعترف بأن من شعرائنا من تكره طبيعتهم هذا الكسل وتميل الى القراءة والدرس والتفكير وتحب أن تظهر آثار هذا كله فى شعرها ولكن هؤلاء الشعراء لا يجدون من قرائهم تشجيعاً ، ولا يرون من أقرانهم الشعراء الا حسداً وحقداً وحرباً شعواء ، تعلن عليهم جهراً مرة ومن وراء ستار مرة أخرى . وهؤلاء الشعراء ليسوا كثيرين أذكر فى مصر منهم خليل مطران والعقاد . وفى العراق معروف الرصافى وجميل صدقى الزهاوى ولكن كثرة القراء تؤثر على شعر هؤلاء شعر شوقى وحافظ وهى تؤثر هذا الشعر لأن حظه من التفكير قليل فيقف الشعراء من قرائهم موقفين مختلفين : فاما أن يذعنوا لهؤلاء القراء ليروج شعرهم ويثبتوا لمنافسة خصومهم ، وإما أن لا يحفلوا بالقراء ولا بالخصوم ويمضوا فى مذهبهم الشعرى لأنهم يقولون الشعر لأنفسهم قبل أن يقولوه للناس ، ومن الذين يذعنون للقراء فيسيئون الى أنفسهم والى الشعر ، ويؤخرون تطور الشعر تأخيراً عليهم إثمه : مطران فانا أعرفه من أشد الناس ميلا الى القراءة والدرس ، ومن

أحرصهم على أن يكون شعره مظهراً لعقله وخياله معاً. وقد قرأت له شعراً أشهد أنى لم أقرأ مثله لشعرائنا الذين يخلبون الناس ببهرج اللفظ وزخرف الأسلوب . ولكنه يحس من قرائه فتوراً، ومن أقرانه إعراضاً وازدراء وأزوراراً فيجارى أقرانه ويقول من الشعر مثل ما يقولون، فلا يبلغ من الزخرف والبهرج والفتنة الكاذبة ما يبلغون . ومن الذين لا يحفلون باعراض القراء وكيد الخصوم، وانما يمضون فى طريقهم جادين لا يلوون على شىء لأنهم يؤمنون بمذهبهم فى الشعر ويتخذون من هذا المذهب لهم فلسفة أدبية عباس العقاد وجميل صدقى الزهاوى ، قد لا تعجبنى أحياناً صورهما اللفظية ،وقد يقصران أحياناً عن الاجادة اللفظية الممتعة ، ولكن خصومها يستطيعون أن يقولوا ما يشاءون ، دون أن يوفقوا الى اثبات أننا حين نقرأ شعر هذين الرجلين لا نقرأ كلاماً فارغاً ولا نخرج منه كما دخلنا فيه ، وانما نرى فيه شخصية لها وزن وقيمة وعقلية تفكر وتعرف كيف تعلن تفكيرها الى الناس .

فأنت ترى أيها الصديق أن ظاهرة الكسل العقلى تظهر أولا عند الشعراء ، ثم تنتقل منهم الى القراء ثم تعود من القراء الى الشعراء ، فتنتج فساد الشعر والذوق والخلق معاً ، وتحول

بين هذا الفن الأدبى وبين حقه من التطور والتحديد .

وقد أنستنى هذه الملاحظة أو كادت تنسينى الملاحظة الثانية التى ألاحظها على مقالك القيم ، فأنت مصيب حين تلاحظ أن الشعر فى العصر العربى كان كل شىء فى الأدب العربى . ولكنى أخشى أن يكون إطلاق هذا الحكم مبعداً لك بعض الشىء عن الصواب . فقد كان للعرب العباسيين نثر ، وكان لهم نثر قيم . وليس ذنب العرب أننا لم نقرأ هذا النثر ولم ندرسه كما قرأنا الشعر ودرسناه ، وانما ذلك ذنبنا نحن ا وأحسب أنك لو عنيت بأدب العصر العباسى عناية صالحة لغيرت رأيك بعض الشىء فى النثر ، ولوافقتنى على أن الشعر كان ظاهر المكانة فى الأدب العباسى ؛ ولكن النثر لم يخل من جمال ورونق فنى صحيح . على أن الآية قد انعكست الآن فأصبح الأدب العربى الحديث نثراً كله وأصبح الشعر بفضل الشعراء وكسلهم العقلى فناً عرضياً ، لا يحفل به الا للهو والزينة والزخرف ، فاذا أراد بنك مصر أن يفتتح بناءه الجديد طلب الى شوقى قصيدة فنظم له شوقى هذه القصيدة ، واذا أرادت دار العلوم أن تحتفل بعيدها الخمسينى كما يقولون طلبت الى شوقى والجارم وعبد المطلب أن ينظموا لها قصائد فنظموا لها القصائد . واذا

مات عظيم وأريد الاحتفال بتأبينه ، أو نبه نابه وأريد الاحتفال بتكريمه طلب الى الشعراء أن ينظموا الشعر فى المدح والرثاء فنظموه كما كان ينظمه القدماء . فانحط الشعر حتى أصبح كهذه الكراسى الجميلة المزخرفة التى تتخذ فى الحفلات والمآتم ، وأصبحنا لا نتصور حفلة بغير قصيدة لشوقى أو حافظ ، كما أننا لا نتصور عيداً أو مأتماً بغير مغن أو مرتل للقرآن ، فأما الشعر الذى يقال لنفسه ، الذى يقال ليجلو مظهراً من مظاهر الجمال الطبيعى ، الذى يقال ليكون صلة بين نفس الشاعر ونفس القراء ، الذى يقال لا ليتملق عاطفة من العواطف أو هوى من الأهواء ، فلا تلتمسه عندنا ولكن التمسه عند قوم آخرين عرف شعراؤهم لأنفسهم كرامتها ، فربأوا بها عن أن تكون أداة للهو والزينة .

وأنت أيها الصديق دعوت الى الاحتفاء بتاجور حين مر بمصر ، وكنت قوام هذا الاحتفاء وأنت لم تحتف بتاجور الا لأنك قرأت شعره فأعجبك وراقك ، كما يعجبك ويروقك شعر النابهين من أهل أوروبا القديمة والحديثة . أفترى أن لتاجور ديواناً أو مجموعة قصائد وقفت على المدح والرثاء وافتتاح المصارف والاحتفال بالمدارس؟ ألست تلاحظ أن شعر تاجور شعر انسانى ، وأن شعر شعرائنا شعر أشخاص

وظروف ؟! ولتاجور فلسفة كما للمعرى والمتنبى فلسفة ، فاين فلسفة شوقى أو حافظ أو البارودى أو مطران ؟ ! وتاجور ترجم شعره الى اللغات الأوروبية فأصبح شاعراً عالمياً يكبره الغرب الحديث كما يكبره الشرق القديم . فهل لو ترجم شعر شوقى أو حافظ الى الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية يقرأ ويعجب ويخلب العقول ويضمن لأصحابه جائزة نوبل كما ضمنها لتاجور ؟ كلا ! وليس مصدر ذلك الا أن تاجور لا يزدرى العقل ولا يسلم نفسه للخيال وحده ، وأن أصحابنا لا يلتمسون شعرهم فى العالم الحقيقى المعقول ، وانما يلتمسونه فى هذا الدخان الذى يرسلونه من افواههم حين يدخنون السجاير أو الشيشة :

وأرانى قد أطلت عليك ولا أقول أطلت على القراء ، فأنا لم أكتب للقراء وانما كتبت اليك أنت . وأكبر ظنى أنك ستذيع هذا الكتاب ، فأنت فى حل من ذلك ان شئت . أن كنت أوثر أن تستبقيه لنفسك . ولكنى ألح عليك إن اعتزمت نشر هذا الكتاب ألا تمسه بتغيير أو اصلاح ، فأنا من أشد الناس بغضاً لهذا النوع من التغيير والاصلاح . وأنا أحب أن يعرفنى الناس كما أنا ، لا كما تحب أنت أن يعرفونى أو ثر أن

يعرفنى الناس كما أنا فيكرهونى على أن يعرفنى الناس كما تريد أنت فيحبونى . وأنا أهدى اليك تحية ملؤها المودة الصادقة .

— ١٣ —
الرثاء فى شعر حافظ

رحم الله حافظاً ! ما أرى أن الذين سيعرضون لرثائه من الكتاب والشعراء سيوفونه حقه أو يبلغون من ذلك ما كان يبلغه هو حين كان يعرض لرثاء الأعلام الذين كان يفقدهم هذا البلد من حين إلى حين !

فقد كانت نفس حافظ رحمه الله تمتاز بشيئين أتاحا لها إجادة الرثاء واتقانه والبراعة فيه ، كانت قوية الحس كأشد ما تكون النفوس الممتازة قوة حس وصفاء طبع واعتدال مزاج . وكانت إلى ذلك وفية رضية لا تستبقى من صلاتها بالناس إلا الخير ، ولا تحتفظ إلا بالمعروف ، ولا ترى للاحسان والبر جزاء يعدل الاشادة به ، والثناء عليه ، ونصبه للناس مثلا يحتذى ونموذجاً يتأثر . وكانت الى هذا وذاك ترى ديناً عليها ، لا أقول لنفسها ولا أقول للناس ، وإنما أقول للفن والحق والتاريخ . لا ترى خيراً إلا سجلته ، ولا تحس معروفاً إلا أذاعته ، كأنما كان الذين يحسنون الى أنفسهم أو

الى خاصتهم أو الى جماعة من الناس قليلة أو كثيرة يحسنون الى حافظ نفسه ! وكأنما كان حافظ يؤمن بأن من الحق عليه أن يشكر للمحسن إحسانه ، ويسجل لصاحب المعروف معروفه ، مهما يكن مصدر هذا الاحسان والمعروف ، ومهما يكن موضوعهما ! فهذا أحد الأمرين الذين كانت تمتاز بهما نفس حافظ : حس قوى دقيق ، وخلق رضىّ كريم . فأما الأمر الآخر فصلة غريبة متينة بين هـــذه النفس القوية الكريمة وبين نفوس الشعب وميوله وأهوائه وآماله ومثله العليـا .

رحم الله حافظاً ! لم يكن فرداً يعيش لنفسه بنفسه ، وإنما كانت مصر كلها ، بل الشرق كله ، بل الانسانية كلها فى كثير من الأحيان تعيش فى هذا الرجل ، تحس بحسه ، وتألم بقلبه ، وتفكر بعقله ، وتنطق بلسانه ، لا أعرف بين شـعراء هذه الأيام شاعراً جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحيـاة نفسه ولحياة شعبه كحافظ رحمه الله . فالذين يقرأون شعره الآن والذين كانوا يقرأون شعره فى حياته ، والذين كانوا يستمعون له إذا أنشد الشعر فى المجالس الخاصـــة والمجامع العامة ؛ يؤخذون بهاتين الصورتين الواضحتين كل الوضوح : صورة

الشعب وما يجد من ألم وأمل ، وصورة حافظ وما يحس من بأس أو رجاء . كذلك كان حافظ ، وكذلك كانت نفسه ، وكذلك كانت الصلة بينه وبين الناس . فليس غريباً أن تقع الكوارث من نفسه أشد وقع ، وأن تثير فيها عواطف لذاعة من الألم والحسرة ، ومن الحزن واللوعة . وليس غريباً أن ينطق لسانه بالشعر فى تصوير هذه العواطف فيبلغ من ذلك ما يريد فى غير مشقة ولا عناء ، ويصل الى هذه المنزلة التى لا يصل اليها الشعراء إلا أن يكونوا مطبوعين أو أن تكون الظروف قد واتتهم وأتاحت لهم من أسباب القدرة والبراعة ما يقربهم من المطبوعين . وهى أن يبلغوا بالذين يقرأونهم ويستمعون لهم مثل ما فى أنفسهم من الحزن واللوعة ، ومن الحسرة والأسى ، فاذا بكوا بكى معهم الناس صادقين . وإذا جزعوا جزع معهم الناس مخلصين .

هذه منزلة لا أعرف كثيراً من شعراء العربية فى العصر الحديث قد بلغوا منها ما بلغ حافظ ، فبين شعرائنا فى هذه الأيام من يرثون فيحسنون الرثاء ، ويجيدون وصف الفقيد الراحل وتعديد خلاله ومآثره ، ويتقنون وصف الحزن عليه والأسى لفراقه ، ويبلغون البراعة فى ضرب الأمثال

السائرة وإرسال الحكم البالغة ويجمعون من هذا كله ما يحسن وقعه فى القلوب ، وما يلذ الأسماع والعقول معاً ، ولكنهم لا يثيرون على ذلك كله ما فى النفوس من عواطف الحزن الكامنة ، ولا يذرفون من العيون هذه الدموع الغزيرة كما كان يفعل حافظ لأن أكثر هؤلاء الشعراء يرثون ولكن عن غير حزن صادق ، ويندبون ولكن عن غير لوعة محرقة ، هم يقصدون من الرثاء على أنه فن من فنون الشعر يجب أن يساهموا فيه وعلى أن مكانتهم الأدبية تضطرهم إلى أن تكون لهم فى الرثاء كلمة مسموعة ، أما حافظ فكان يرثى لأنه يحزن ، وكان يحزن لأنه يحب ، وكان يحب لأن الله قد وهبه نفساً رضية مؤثرة لم تبرأ من شىء قط كما برئت من الأثرة ، وكما برئت من الضغينة والحقد .

كان حافظ ينتهى من حب أصدقائه الى حيث لا يقدّر أن بينه وبينهم فرقاً ، الى حيث يراهم جزءاً من نفسه . وكان حافظ كما قدمت يحب الشعب ويحس بحسه ويشعر بشعوره ، فكان إذا رثى علماً من أعلام مصر كأنما يرثى نفسه أولا ، وكأنما يرثى أمته ثانياً . وقد أتيح لحافظ أن يكون صديقاً وفياً لهؤلاء الأعلام الذين سعدت مصر بحياتهم وشقيت

بوفائهم منذ أول هذا القرن . وقد تقول إن هذه الصداقة أتيحت لغير حافظ من الشعراء ، ولكنى حدثتك عن وفاء حافظ وإيثاره وزهده فى متاع الدنيا واشتغاله عن المنافع العاجلة بالمثل العليا . فلا بدع أن يمتاز رثاء حافظ بصدق اللهجة ، وأن يبلغ من نفوس الناس ما لا يبلغه رثاء غيره من الشعراء المعاصرين .

أراد قدامة فى أواخر القرن الثالث للهجرة أن يضع للشعر أصولا ونظما ، لايجوز للشعراء أن يتعدوها ويخرجوا عنها . فلما بلغ الرثاء زعم وزعم معه النقاد الذين جاءوا من بعده أن الرثاء والمدح فن واحد فى حقيقة الأمر ، وأن الفرق بينهما أن أحدهما يتناول الميت والآخر يتناول الحىّ ، وأن مظهر هذا الفرق أن من ذكر الميت لجأ إلى الفعل الماضى فحكى عنه وقال كان كريماً أو كنت كريماً ، ومن ذكر الحىّ لجأ إلى الفعل المضارع أو الى ما فى حكمه من أنواع الجمل فقال هو كريم أو أنت كريم وما يشبه هذا ، ولم يهتد قدامة وأصحابه فى الرثاء إلى أكثر من هذا المقدار ، أو قل إنهم لم يهتدوا إلى شىء ، فان العواطف التى تبعث على الرثاء غير العواطف التى تبعث على المدح قوام تلك

الحزن واليأس ، وقوام هـذه البهجة والرجاء . وقد يكون الاعجاب مشتركا بين الرثاء والمديح . ولكن قلما يكون الاعجاب وحده مصدراً لمدح أو رثاء حتى تصحبه رغبة أو رهبة ، أو أمل أو حسرة ، أولوعة أو قنوط . وأكبر الظن أن كثيراً من الشعراء المعاصرين الذين يذهبون مذهب البارودى وحافظ فى الشعر ويحيون فيه سنة للقدماء لا يزالون يرون المدح والرثاء كما كان يراهما قدامة وابن رشيق وغيرهما من النقاد المتقدمين تعديداً للمآثر والمفاخر ولوناً من ألوان المدح للأموات . وكان حافظ ـ رحمه الله ـ فى أول عهده بالشعر يذهب هذا المذهب ويغلو فيه لأنه كان يقلد القدماء تقليداً ويحاكيهم محاكاة تذهب بشخصيته أو تكاد تذهب بها . فأنت إذا قرأت رثاءه لبعض الأباطين فى الجزء الأول من ديوانه أعجبت باللفظ أكثر مما تعجب بالمعنى ، ولم تجد فى هـــذا الرثاء حزناً صادقاً ولا لوعة محرقة ، وانما أحسست كأنك تقرأ شعر طالب وضع أمامه نماذج من الشعر القديم وأراد محاكاتها ، فأخذ معانى القدماء وذهب مذهبهم فى الغلو السقيم أحياناً وكأنه لم يدفع الى هذا الرثاء بطبيعته الرقيقة المحزونة . وإنما دفع اليه بمجاملة أصدقائه من الأباطين ، فانظر

الى هذه الداليه مثلا ، فسترى أن حافظاً رحمه الله قد كان فيها عيالا على دالية أبي العلاء التى مطلعها :

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شادى

أخذ معنى من معانيها فجعل يطوّله ويمد فيه ويقلبه على وجوه عدة ، ولكنه لم يجوده ولم يأت فيه بطائل ولم يبلغ منه بعض ما بلغ أبو العلاء قال حافظ :

أيها الثرى إلام التمادى بعد هذا أأنت غرثان صادى؟
أنت تروى من مدمع كل يوم وتغذى من هذه الأجساد !
قد جعلت الأنام زادك فى الدهـــر وقد آذن الورى بالنفاد !
فالتمس بعده المجرة ورداً وتزود من النجوم بزاد !

فانظر الى هذين البيتين الأخيرين فسترى فيهما مبالغة أشبه بمبالغة الناشئين فى الشعر ، لا تستقيم مع العقل ولا تكاد تدل على شيء . وكيف بشاعر يزعم أن التراب أكل الناس حتى كاد يأتى عليهم وشرب الدموع حتى كاد يستغرقها ، وينصح له أن يلتمس شرابه فى المجرة وطعامه فى النجوم ؟ وحافظ يمضى فى التفصيل والتطويل دون أن يبلغ قول أبى العلاء :

خفف الوطأ ما أظن أديم الأ رض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وان قدم العهـــد هوان الآباء والأجداد

ولكنك تلمح هذا النوع من القصور فى أكثر القسم الأول من شعر حافظ، لا فى الرثاء وحده بل فى فنونه الشعرية كلها ، فحافظ لم ينشأ شاعراً وانما اكتسب الشعر اكتساباً وأنفق حياته كلها فى تجويد شعره وتحسينه . على أنه لم تكد تتقدم به الحياة حتى ظهرت فيه هذه الخصال التى أشرت اليها والتى قضت له بالتفوق فى الرثاء. فانظر اليه حين رثى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده : كيف غابت طبيعته صناعته؟ وكيف تحدث قلبه وايمانه الى قلوب المسلمين وإيمانهم ؟ وكيف انتقل حزنه ووفاؤه الى نفوس الناس فعلمهم كيف يجدون لذع الحزن وكيف يستعذبون لذة الوفاء؟ وهو على ذلك لم يخلّ بأصول الفن كما عرفها المتأدبون القدماء من تعديد المآثر والمفاخر وهو متين رصين اللفظ بديع الأسلوب لا يعرف الضعف ولا الوهن الى شعره سبيلا :

سلام على الاســـلام بعد محمد
ســـلام على أيامه النضرات

على الدين والدنيا ، على العلم والحجى
على البر والتقوى ، على الحسنات

لقد كنت أخشى عادِىَ الموت قبله
فأصبحت أخشى أن تطول حياتى !
فوا لهفى والقبر بينى وبينه
على نظرة من تلكم النظرات !
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعاً
كأنى حِيال القبر فى عرفات
لقد جهلوا قدر الأمام فأودعوا
تجاليده فى موحش بفلاة
ولو ضرحوا بالمسجدين لأنزلوا
بخير بقاع الأرض خير رفات

فى لفظ هذه الأبيات من الروعة والرصانة ما عرفناه فى شعر حافظ كله أو أكثره ، ومعانى هذه الأبيات مألوفة شائعة ، ليس فيها غرابة ولا ابتكار . ولكن فى الأبيات مع ذلك شيئاً لا أدرى ماهو ! يملأ النفوس لوعة والقلوب أسى ، بل أنا أدرى ماهو : هو قبس من هذه النار التى كانت تضطرم فى نفس حافظ حزناً صادقاً على صديقه ووليه وأستاذه ، نفذ هذا القبس الصادق فى هذا الشعر العادى فجعله حزناً كله . ثم انظر الى هذا الجزع العظيم ، كيف تصور كأنه طوفان مهلك

يغمر كل شيء ويأتى على كل نفس ، حتى فزع الشاعر منه وقد ملكه الذهول واستأثر به اليأس فقال :

تباركت هذا الدين دين محمد
أيترك فى الدنيـــا بغير حماة !
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى
ولانت قناة الدين للغمزات

ثم انظر الى هذين البيتين كيف يصوران اليأس اللاذع والقنوط المميت :

مددنا الى «الأعلام» بعدك راحنا
فردت الى أعطافنا صفرات
وجالت بنا تبغى سواك عيوننا
فعدن وآثرن العمى شرقات

ولو أنى ذهبت أحلل القصيدة كلها وأختار منها لما تركت منها بيتاً واحداً فكلها جيد ، إما لجدة المعنى وإما لرصانة اللفظ وإما لصدق اللهجة ، وإما لهذه الخلال كلها مجتمعات . وانظر الى هذه الأبيات التى وصف فيها حافظ حزن الشرق على الأستاذ الأمام ، وهى الآن أصدق ما يقال فى حزن الشرق على حافظ نفسه :

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة
وفاضت عيون الكون بالعبرات
فى الهند محزون ، وفى الصين جازع
وفى مصر باك دائم الحسرات
وفى الشام مفجوع ، وفى الفرس نادب
وفى تونس ما شئت من زفرات !

ولست أقف عند ما فى هذه القصيدة من وصف للاستاذ الأمام من نواحيه المختلفة ، لا لأنى عجل بل لأنى أكره أن أظلم غيرى من الأصدقاء الذين يكتبون عن حافظ . ولكنى أحب أن تقرأ معى هذه الأبيات التى ختم بها حافظ رثاءه للأستاذ الامام لتتمثل مافيها من الحزن الصادق والاعتراف بالجميل ، وكان حافظ أشد الناس اعترافاً بالجميل وأحرصهم على شكر من أحسن اليه أو شملته منه يد مهما تكن يسيرة ضئيلة .

قال حافظ :

فيا منزلا فى عين شمس أظلنى
وأرغم حسادى وغم عداتى

دعائمه التقوى وآساسه الهدى
وفيه الأيادى موضع اللبنات
عليك سلام الله مالك موحشاً
عبوس المغانى ، مقفر العرصات؟
لقد كنت مقصود الجوانب آهلا
تطوف بك الآمال مبتهلات
مثابة أرزاق ومهبط حكمة
ومطلع أنوار وكنز عظات

هذه قصيدة خالدة من غير شك وهى لا تستمد خلودها من قيلت فيه وحده ولا من قالها وحده ، وانما تستمد هذا الخلود من الرجلين جميعاً . فقد كانت حياة الأستاذ الامام شيئاً رائعاً ، واستطاع حافظ أن يعطى منها صورة رائعة .وما أكثر ما قال الشعراء فى الأستاذ الامام بعد موته ! ولكنك تستطيع أن تقرأ هـذا الشعر الكثير فستجد منه الحسن الجميل ، وستجد منه المتوسط وستجد منه الردىء دون أن تظفر بمثل هذه القصيدة روعـة وجمالا وصدق لهجة واستحقاقاً للخلود .

ورثى حافظ أستاذه البارودى فيمن رثاه من الشعراء

فوفق الى جودة اللفظ ورصانته ، ووفق الى احياء الأسلوب القديم فى رثاء هو بالمدح أشبه . ولكنه على ذلك لم يبلغ أن يمس القلوب بهذا الحزن اللاذع . ومع أنه لم يكن يريد الصدق فى أول هذه القصيدة حين يقول :

ردوا على بيانى بعد محمود
انى عييت واعيا الشعر مجهودى
ما للبلاغة غضبى لا تطاوعنى
وما لحبل القوافى غير ممدود ؟

فليس من شك انه قد صدق وقال الحق فعي واعى الشعر مجهوده ، وامتنعت عليه البلاغة وقصر عليه حبل القوافى على ما حاول من تقليد مسلم بن الوليد فى داليته المشهورة :

« لاتدع بى الشوق انى غير معمود »

ومصدر ذلك فيما يظهر ان حافظاً تهيب إمام الشعراء ميتاً كما كان يتهيبه حياً ، واعتقد انه مهما يقل فى البارودى فلن يبلغ من رثائه مايريد ، ففلّ ذلك من حده وفتّ فى عضده وقصر به عن غايته . ومصدر ذلك ايضا فيما يظهر ان موت البارودى لم يكن رزءاً شعبياً أو لم يره الناس كذلك فى وقته وانما كان رزءاً للادباء وابرع ما يكون حافظ فى الرثاء حين يصور

حزن الشعب وألمه . لذلك جاد كل الاجادة فى رثاء الاستاذ الامام وفى رثاء مصطفى كامل لأن الاول كان فقده رزءاً فى عظيم من عظماء الدين ومن عظماء النهضة الفكرية ولأن الثانى كان فقده رُزءاً فى عظيم من عظماء السياسة . فكان حافظ فى رثائهما ناطقا بلسان الجماهير .

وبراعة حافظ فى تصوير آلام الشعب اكتسبت شعره السياسى ورثاءه لأصحاب السياسة لونا من الخطابة يمنحه قوة غريبة تسيطر حقاً على نفوس الجماعات فتفعل فيهما الأعاجيب

انظر الى قوله فى رثاء مصطفى كامل :

انى ارى وفؤادى ليس يكذبنى
روحا يحف به الاكبار والعظم
ارى جلالا، ارى نوراً، ارى ملكا
ارى محيـــا يحيينا ويبتسم
الله اكبر هذا الوجه اعرفه
هذا فتى النيل هذا المفرد العلم
غضوا العيون وحيوه تحيته
من القلوب اذا لم تسعد الكلم

وأقسموا أن تذودوا عن مبادئه

فنحن فى موقف يحلو به القسم

لبيك نحن الألى حركت أنفسهم

لما سكنت ولما غالك العدم

جئنا نؤدى حساباً عن مواقفنا

ونستعد ونستعدى ونحتكم

ألا ترى الى هذه الابيات ، وكيف استحضر الشاعر فيها شخص الزعيم يحف به الجلال والعظمة ، وكيف مهد لهذا الاستحضار بهذا البيت الأول الذى خرج فيه عن طورد العادى وأخرج الناس معه عن أطوارهم، وهيأهم لموقف غير مألوف ثم أخذ يدفعهم الى هذا الموقف دفعاً ويملأ قلوبهم هيبة وإجلالا بهذا البيت الذى ألفه من جمل منقطعة قصيرة وختمه بصورة خلابة رائعة :

أرى جلالا أرى نوراً أرى ملكا

أرى محيـــاً يحيينا ويبتسم

ثم انظر اليه كيف استأثر به الذهول وغلبه على نفسه وملك عليه كل أمره فصاح :

الله أكبر هذا الوجه أعرفه

هذا فتى النيل هذا المفرد العلم

ثم انظر إليه بعد ذلك وقد أكد الجمهور وأنساه نفسه وملك عليه شعوره وحسه وأقنعه بأنه أمام الزعيم كيف يتحدث الى هذا الجمهور بهذا الحديث الذى تملؤه المهابة والروعة والحب معاً فيقول :

غضوا العيون وحيوه تحيته

من القلوب اذا لم تسعد الكلم

ثم يتجه بعد ذلك الى الزعيم نفسه فيصيح صيحة كلها ايمان وطاعة ويقين واعجاب .

لبيك نحن الألى حركت أنفسهم

لما سكنت ولما غالك العدم

هذه أبيات لو قرأها أرسطاليس صاحب الخطابة ومنشئ علم البيان لما تردد فى أن يتخذها مثلا لما يسميه فى الكتاب الثالث من الخطابة وضع الشئ تحت العين .

ورثى حافظ قاسماً فلم يكن فى رثائه اياه شعبياً ولا شاعر جمهور بالمعنى الذى نراه فى رثائه للاستاذ الامام ولمصطفى كامل، وانما كان انساناً حساساً قوى الحس محزوناً صادق الحزن

ومصرياً مشفقا على مصر من هذه الأحداث التى تلم بها سراعا فتنتزع أعلامها انتزاعا ، انظر الى قوله :

مالى أرى الأجداث حالية
وأرى ربوع النيل فى عطل
فاذا الكنانة أطلعت رجلا
طاح القضاء بذلك الرجل
أو كلما أرسلت مرثية
من أدمعى فى إثر مرتحل
هاجت بى الأخرى دفين أسى
فوصلت بين مدامع المقل
وان خاننى فيما فجعت به
شعرى فهذا الدمع يشفع لى

وانظر إلى هذه الأبيات والى ما أدرك الشاعر فيها من المعنى الخصب الكثير فى اللفظ العذب القليل :

قد كنت أشقانا بنا وكذا
يشقى الأبى بصحبة الوكل
لهفى عليك قضيت مرتجلا
لم تشك ، لم تستوص ، لم تنل

غالى القضاء يد القضا فـــذا
يبكى عليك ، وذاك فى جذل

وقد عرض حافظ فى هذه القصيدة لرأى قاسم فى السفور والحجاب فتحفظ ولم يقطع ولم يعلن مناصرة صاحبه . وكان فى ذلك مصورا (سواء أراد أو لم يرد) لموقف كثير من المستنيرين فى ذلك العصر كانوا يرون رأى قاسم ، ولكنهم يشفقون من الجهر به ويرجئون الأمر الى الأيام تقضى فيه بالحق . فانظر الى حافظ كيف يقول :

ان ريت رأيا فى الحجاب ولم
تعصم فتلك مراتب الرســـل
الحكم للأيام مرجعـــه
فيما رأيت فنم ولا تســـل
وكذا طهـــاة الرأى تتركه
للدهر ينضجه على مهـــل
فاذا أصبت فأنت خـــير فتى
وضع الدواء مواضع العلـــل
أولا فحسبك ما شرفت به
وتركت فى دنياك من عمل

ثم أثار موت قاسم فى نفس حافظ ذكرى أصدقائه الذين ذهبوا من أعلام مصر وقادة الرأى فيها ، ومن الذين كان يسعد حافظ بمودتهم له وعطفهم عليه وكانوا يسعدون بلقائه وحديثه الحلو وأدبه العذب فقال هذه الأبيات التى تفيض حزناً وأسى ، وتملأ نفوسنا حزناً وأسى كلما قرأناها . وأينا لا يجد نفسه فى هذه المنزلة التى وجد حافظ فيها نفسه يوم مات قاسم فذكر حافظ به موت الذين سبقوه ولقد مات أصدقاء لحافظ بعد قاسم فذكر بهم قاسما ومات حافظ الآن فحزنا لموته ، ونحن نذكر به موت اصدقائنا الذين سبقوه . وكذلك يريد الله ان يجعل قلوب الأحياء قبوراً لأصدقائهم الذين يسبقونهم الى الموت ، ومن خير ما فى هذه الأبيات يأس حافظ مما انتهت اليه الحياة بعد أصدقائه هؤلاء . ومما انتهت اليه مصر من فساد الحال واعوجاج الأمر بعد أن رحل عنها أولئك المصلحون ، والغريب أن ما قاله حافظ بعد موت قاسم نستطيع أن نردده الآن بعد موت الذين ماتوا من زعماء مصر وقادتها ، فليس مصر بالبلد الذى يمكن ان يتمثل فيه بقول الشاعر القديم :

اذا مات منـــا سيد قام سيد

قؤول لمـا قال الكرام فعول

وانما يمضى الزعيم او المصلح فيخلو مكانه ويظل خالياً وينساه الناس ولايذكره منهم الا الأقلون .

قال حافظ :

واها على دار مررت بها ... قفرا وكانت ملتقى السبل
أرخصت فيها كل غالية ... وذكرت فيها وقفة الطلل
ساءلتها عن قاسم فأبت ... رد الجواب فرحت فى خبل
متعثرا يتنابى وهن ... مترنحاً كالشارب الثمل
متذكرا يوم الامام به ... يوم انتويت بذلك البطل
يوم احتسبت وكنت ذا أمل ... تحت التراب بقية الأمل
جاور أحبتك الألى ذهبوا ... بالعزم والاقدام والعمل
واذكر لهم حاج البلاد الى ... تلك النهى فى الحادث الجلل
قل للامام اذا التقيت به ... فى الجنتين بأكرم النزل
إن الحقيقة أصبحت هدفا ... للراكبين مراكب الزلل
لله آثار لكم خلدت ... صاح الزوال بها فلم تزل
لله أيام لكم درجت ... طالت عورافها ولم تطل
نعم الظلال لو انها بقيت ... أو ان ظلا غير منتقل !

أترانا نحمل حافظاً رحمه الله شيئاً غير هذا لو أردناه على أن يصور لأصحابه الأكرمين حال مصر بعد أن تركوها !

ألسنا نحمله مثل هذا الى الاستاذ الامام والى قاسم ومصطفى كامل والى سعد وثروت ؟ بلى ، لقد قلت لك انى لا أرى ان الذين سيرثون حافظا من الكتاب والشعراء سيبلغون من رثائه ما كان يبلغ هو من رثاء الذين رثاهم من زعماء مصر وأئمتها .

على أن لحافظ رثاء تقليدياً أوقل رثاء أضطر اليه اضطراراً للمجاملة ، أولأن مكانته كانت تضطره اليه . ومن هذا الرثاء التقليدى ما قاله الشاعر قبل أن ينضج فنه كهذا الرثاء الذى قاله فى بعض الأباطين والذى أشرت اليه منذ حين ، وكقصيدته التى يعزى بها الانجليز عن فقدهم لملكتهم فيكتوريا ، ومن هذا الرثاء التقليدى ما قاله الشاعر وقد نضج فنه وتمت له أداة الشعر فأجاد اللفظ ووفق الى معان حسان ، منها المبتكر ومنها المستعار ، ولكنه على كل حال لم يستطع ان يمس القلوب وان استطاع ان يثير الاعجاب ، وربما كان رثاؤه لرياض باشا أصدق مثال لهذا النوع من الشعر الذى بكى فيه الشاعر بلسانه وعقله ولم يبك فيه بقلبه ولا وجدانه .

ولحافظ فى رثائه بل فى شعره كله صور يقلد فيها القدماء ولكنه لم يحققها ولم يمحصها ، ولم يكن حافظ يحفل بمثل هذا التحقيق والتمحيص لأنه كان يؤمن بروعة اللفظ وأثرها فى

نفس السامع والقارىء ، وكان يعتقد ولعله كان مصيباً أن كثيراً من قرائه وسامعيه كانوا مثله لا يعنيهم التحقيق ولا التمحيص، ولا يكلفون الشعر ما يكلفون النثر من الدقة وتجنب المحال، فحافظ يجرى الدموع أنهاراً ويخيل الى نفسه والى الناس ان هذه الدموع الجارية تستطيع ان تحمل الفقيد الى قبره وحافظ يؤجج الأنفاس ناراً ويخيل الى نفسه والى الناس أن هذه النار تستطيع ان تحرق المشيعين لو لا مايقاومها مع الدموع . وحافظ كما رأيت يكلف تراب الأرض أن يشرب من المجرة ويأكل من النجوم . وحافظ يطلب الى قبر مصطفى كامل أن يكبر ويهلل وان يلقى ضيفه جاثياً . وقد سألته رحمه الله ذات يوم كيف تتصور القبر جاثياً ؟ فقال دعنى من نقدك وتحليلك، ولكن حدثنى أليس يحسن وقع هذا البيت فى أذنك ؟ أليس يثير فى نفسك الحزن ؟ أليس يصور ما لمصطفى من جلال ؟ قلت بلى ولكن . . قال دعنى من لكن واكتف مثلى بهذا .

رحم الله حافظاً لم يكن رثاؤه صورة لما يثور فى نفسه ونفس الناس من حزن فحسب ، وانما رثاؤه يصلح مصدراً من مصادر التاريخ السياسى والاجتماعى فى هذا العصر ؛ فقد كان حافظ يبالغ ويغلو ويطبع الخيال ويضطر الى المحال

ولكنه رغم هذا كله لم يكن يفسد الحقائق ، ولا يعبث بها ، وانما كان مؤرخاً صادقاً للحوادث فى رثائه وشعره السياسى ، كما كان مصوراً متقناً للنفوس .

رحم الله حافظاً ! ان فصلا قصيراً كهذا الفصل لا يسع رثاءه ولا ينهض بنقده وتحليله كما ينبغى أن يكون النقد والتحليل . وانى لأرجو أن نبلغ من ذلك مانريد فى الكتاب الذى سيهيأ الآن لدرس شاعر النيل .